نظام الحسبة:

إحياء إسلامي لتنظيم الأسواق في عصر الاقتصاد الرقمي

حسين عبد المطلب الأسرج

عضو هيئة تحرير مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

تاريخيا وفى المجتمعات الإسلامية، كان المحتسب يجوب الأزقة يتفقد الموازين ويتأكد من صدق التجار في بيعهم ويحول دون الغش والاحتكار. كان دوره رمزًا للعدل والأمانة التي أرادها الإسلام لمجتمعاته. اليوم، وبينما تتسارع وتيرة التجارة الإلكترونية وتتسع رقعة الاقتصاد الرقمي، تبرز الحاجة إلى إعادة إحياء نظام الحسبة بصورة معاصرة. فالاحتيال الإلكتروني، التلاعب بالأسعار، والإعلانات المضللة أصبحت تهديدات جديدة تتطلب حلولاً مستلهمة من التراث الإسلامي. فهل يمكن لنظام الحسبة، الذي أثبت فعاليته في تنظيم الأسواق التقليدية، أن يكون مفتاحًا لتحقيق العدالة في الأسواق الرقمية؟ يستعرض هذا المقال مفهوم الحسبة، جذورها الفقهية، وإمكانيات تطبيقها في عصرنا، مع اقتراحات لتفعيلها باستخدام التكنولوجيا الحديثة.

أولا : الحسبة في الفقه الإسلامي : مفهوم وأهداف

الحسبة لغةً، مشتقة من "الحساب"، وتعني المراقبة والمحاسبة، وشرعًا هي مؤسسة إسلامية تهدف إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع مع التركيز على تنظيم الأسواق والمعاملات التجارية. ويستند نظام الحسبة إلى النصوص الشرعية، مثل قوله تعالى: **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (آل عمران: ١٠٤)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)** (رواه مسلم). هذه النصوص تجعل الحسبة جزءًا من المسؤولية الجماعية للمسلمين في الحفاظ على العدل والأخلاق.

تاريخيًا، كان المحتسب يُعينه الحاكم للإشراف على عدة جوانب:

١. تنظيم الأسواق: مراقبة الموازين والمكاييل لضمان الشفافية، كما في قوله تعالى: **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ** (المطففين: ١-٢).

٢ . منع الغش والاحتكار: مثل منع التجار من حجب السلع لرفع الأسعار .فقد ورد النهي عن احتكار السلع في عدة أحاديث وذلك لما فيه من التضييق على الناس، فقد روى ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون)** وروى أحمد والحاكم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من احتكر الطعام أربعين ليلة فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه)** .

٣ . حماية الأخلاق العامة: التأكد من التزام التجار والأفراد بالآداب الإسلامية في الأماكن العامة .

٤ . الصحة والبيئة: مراقبة نظافة الأسواق والشوارع، وضمان جودة المنتجات .

ويصف الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية" دور المحتسب بأنه "حامي المجتمع"، إذ يجمع بين الرقابة الاقتصادية والإصلاح الاجتماعي. هذا الدور جعل الحسبة ركيزة أساسية في الاقتصاد الإسلامي، حيث كانت تضمن تحقيق العدالة والثقة بين التجار والمستهلكين.

ثانيا : الحسبة في التاريخ الإسلامي : نماذج ملهمة

في عصر الخلفاء الراشدين، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه نموذجًا للمحتسب العادل .فقد كان يتجول في أسواق المدينة للتأكد من أمانة التجار وكان يعاقب أى تاجر يرفع سعر الطعام دون مبرر، مؤكداً أن السوق يجب أن يظل عادلاً للجميع .

وفي العصر الأموي والعباسي، تطورت الحسبة إلى مؤسسة منظمة، حيث كان المحتسبون يُعينون في المدن الكبرى مثل بغداد ودمشق والقاهرة .

وفي الأندلس، كتب ابن عبدون الإشبيلي كتاباً عن الحسبة يُعد مرجعًا يوضح كيف كان المحتسب يراقب حتى جودة البناء والأغذية .

هذه النماذج التاريخية تُظهر أن الحسبة لم تكن مجرد أداة رقابية، بل كانت نظاماً شاملاً يعزز الثقة في المجتمع ويحمي الضعفاء من استغلال الأقوياء. فكيف يمكننا إحياء هذا النظام في عصرنا؟

ثالثا : تحديات الأسواق المعاصرة

في وقتنا الحاضر يواجه العالم اقتصاداً رقمياً متسارعًا، حيث تُشكل التجارة الإلكترونية جزءاً كبيراً من الاقتصاد العالمي. وفقًا لتقرير Statista لعام ٢٠٢٤، من المتوقع أن تصل قيمة سوق التجارة

الإلكترونية العالمية إلى ٧.٤ تريليون دولار في ٢٠٢٥، مدفوعة بمنصات مثل Amazon و Alibaba لكن مع هذا النمو، تتزايد التحديات:

١. الاحتيال الإلكتروني: تقرير صادر عن شركة Cybersecurity Ventures يُشير إلى أن الجرائم السيبرانية تُكلف العالم ٦ تريليون دولار سنويًا، بما في ذلك سرقة البيانات والاحتيال في المتاجر الإلكترونية.

٢. الإعلانات المضللة: تُستخدم الإعلانات الكاذبة للترويج لمنتجات دون المستوى أو غير حلال، مما يُضر بالمستهلكين.

٣. التلاعب بالأسعار: بعض المنصات تستخدم خوارزميات لرفع الأسعار ديناميكيًا بناءً على طلب المستهلك، مما يُشبه الاحتكار التقليدي.

٤. استغلال البيانات: جمع البيانات الشخصية دون موافقة، مما يتعارض مع مبدأ الأمانة في الإسلام.

وتحاول النماذج الغربية للتنظيم، مثل هيئات حماية المستهلك معالجة هذه المشكلات، لكنها غالبًا ما تفتقر إلى البعد الأخلاقي الذي يميز الحسبة. فعلى سبيل المثال، العقوبات المالية على الشركات الكبرى قد لا تكون كافية لردع الممارسات غير الأخلاقية، كما أنها لا تعالج الجذور الروحية والاجتماعية للغش.

رابعا: تجارب معاصرة ودروس مستفادة

بعض الدول الإسلامية بدأت تطبيقات مستلهمة من الحسبة:

في السعودية، تتولى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعض وظائف الحسبة، مثل مراقبة الأسواق التقليدية، لكن دورها في الأسواق الرقمية لا يزال محدوداً.

في ماليزيا، طورت هيئة الحلال AKIM نظامًا للتحقق من المنتجات الحلال عبر تطبيقات رقمية، مما يُعد خطوة نحو الحسبة الحديثة.

وفي الإمارات، تستخدم هيئات الرقابة التكنولوجيا لمراقبة الأسواق، مما يُظهر إمكانية دمج الحسبة مع التقنيات الحديثة. فعلى سبيل المثال، في عام ٢٠٢٤، أطلقت الإمارات منصة رقمية لمراقبة الأسعار في الأسواق الإلكترونية، مما ساعد في تقليل شكاوى المستهلكين بنسبة ٣٠٪، وفقًا لتقارير وزارة الاقتصاد. هذه التجربة يمكن أن تُوسع لتشمل مبادئ الحسبة، مثل منع الاحتكار والتأكد من الأمانة.

خامسا : تحديات تطبيق الحسبة الرقمية

رغم الإمكانيات الهائلة تواجه الحسبة الرقمية تحديات منها :

١ . الخصوصية : مراقبة الأسواق الإلكترونية قد تتعارض مع قوانين حماية البيانات (مثل GDPR في أوروبا) .

٢ . الخبرة الفنية : الحاجة إلى كوادر تجمع بين الفقه الإسلامي والتكنولوجيا .

٣ . المقاومة الثقافية : بعض المجتمعات قد ترى الحسبة كتدخل في الحريات الشخصية .

للتغلب على هذه التحديات، يجب أن تكون الحسبة الرقمية شفافة، تعتمد على التوافق المجتمعي، وتُدار بمشاركة القطاع الخاص والحكومات .

سادسا : إحياء الحسبة في العصر الرقمي

لإعادة إحياء نظام الحسبة في عصر الاقتصاد الرقمي، يمكن الاستفادة من التكنولوجيا لتطوير نموذج حديث يحقق أهداف الحسبة الإسلامية . ومن ذلك ما يلى :

١ . إنشاء هيئات حسبة رقمية : يمكن إنشاء مؤسسات إقليمية أو دولية تُشرف على الأسواق الإلكترونية، باستخدام الذكاء الاصطناعي لمراقبة الإعلانات والمعاملات . على سبيل المثال، يمكن تطوير خوارزميات تكتشف الإعلانات الكاذبة أو المنتجات غير الحلال .

٢ . منصات الإبلاغ الرقمية : إطلاق تطبيقات تمكّن المستهلكين من الإبلاغ عن الغش أو التلاعب بالأسعار بسهولة، مع ضمان حماية خصوصيتهم .

٣ . شهادات الحلال الرقمية : تطوير نظام عالمي للتحقق من شهادات الحلال عبر تقنية البلوك تشين، لضمان شفافية المنتجات المباعة إلكترونيًا .

٤ . توعية المستهلكين : إطلاق حملات إعلامية تُعلم المسلمين بحقوقهم كمستهلكين، مستندة إلى مبادئ الحسبة، مثل قوله تعالى : **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ** (الأنعام : ١٥٢) .

٥ . التعاون الدولي : تشجيع منظمة التعاون الإسلامي على إنشاء إطار عالمي للحسبة الرقمية يضم خبراء فقهاء وتقنيين .

إن نظام الحسبة ليس مجرد تراث إسلامي، بل رؤية اقتصادية وأخلاقية يمكن أن تُعيد صياغة الأسواق في عصر الاقتصاد الرقمي. إن إحياء هذا النظام باستخدام التكنولوجيا الحديثة، مثل الذكاء الاصطناعي والبلوك تشين، يمكن أن يُحقق العدالة والثقة في الأسواق، ويُعيد للأمة الإسلامية دورها الريادي في تقديم حلول عالمية. فلنجعل الحسبة جسراً يربط بين تراثنا العظيم وتحديات العصر، ولنعمل معًا لبناء أسواق رقمية تعكس قيم الأمانة والعدل التي دعا إليها الإسلام.